

حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري

الجواهري والمتنبي مثالا

المدرس الدكتور

محمد طالب الاسدي

جامعة البصرة / كلية الآداب

حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري الجواهري والمتنبي مثالا

المدرس الدكتور

محمد طالب الاسدي

جامعة البصرة / كلية الآداب

الملخص

اعتمد الجواهري في تحقيق خصوصيته الإبداعية منهجية الاستقصاء والتمحيص وإعادة الإنتاج ، و لا نعني بهذه المنهجية تلك الملامح العابرة من هذه الظاهرة التي نعثر عليها في النص الأدبي ، وإنما نشير إلى سمة لها من الوفرة والرسوخ لدى الجواهري ما يمكن معه أن نعدّها إحدى الخصائص الأسلوبية لنصه المتموقع على مفترق الطريق بين الخليلية القديمة والخليلية الجديدة ، فقد جعل الجواهري من نصه ملتقى نصوص الشعر العربي متباينة العصور ، وبين هذه الروافد يطالعنا المتنبي بوصفه إحدى أكثر المرجعيات المهيمنة الكامنة في نص الجواهري .

اعتمدنا في مقارنة النص من هذا المنطلق التحليلي إحدى تطبيقات المقترّب النصي ممثلة بفكرة " الحوارية " بتعبير باختين ، أو " الحس التاريخي " بتعبير إليوت ، أو " التداخل النصي / التناص بتعبير كرسيفا ، وهو ما يمكن أن ندعوه أيضا بـ " مرجعيات النص " (١) . وقد اخترنا للدراسة " حواريات الكوفة " عنواناً رئيساً لا من منطلق جغرافي وإنما من منطلق الاستحقاق الإبداعي لهذه المدينة العريقة التي قدمت للتأريخ الإسلامي و للدرس اللغوي والنص الشعري العربي الشئ الكثير ، حرصاً على عقد الوشائج بين ماضي أدبنا المشرق وحاضره ، وحفاوة موضوعية من الباحث بتجربتين كوفيتين مهمتين كان لهما وما يزال الأثر الكبير في كتابة النص الشعري وتلقيه النقدي على حد سواء ، فتجربة الجواهري تستحضر المتنبي بقوة .

تمهيد :

يُحسَبُ للجواهري أنه تمكن من خلق حضورٍ ملتزمٍ بالشكل الموروث للنص في أتون انبثاق حركة الشعر الجديد ، ليشكل مساراً موازياً في أتون حمى التجريب التجديدي العربي ، مسار لم يكن ليشكل حضوره الملحوظ لولا امتلاكه قدراً من مقومات البقاء ، فقد نسفت موجة الحداثة الكثير من أهرامات الرمل التي لم تقو على إقناع المتلقي بجدواها ، فعلى الرغم من أن الكثيرين استمروا في كتابة القصيدة العربية على وفق منظور الالتزام ، فإن الجواهري وحده - وقلة من الآخرين - مثل مجدارة الصوت الخليلي الأعلى والأكثر دويًا وصخبًا وتأثيرًا في القطاع (الخليلي) من المتلقين ، فقد امتلك زمام النص ، بمثل ما امتلك رصيда هائلا من المعرفة المبنية على القراءات المتعمقة الموسعة والتأمل النافذ في مواطن التأثير الإبداعي في المقروء ، وهو ما تجلّى قسط منه في مختاراته من ديوان الشعر العربي التي تشير إلى طرف من أسرار الكتابة لديه ممثلا بثقافة شعرية ذات طابع موسوعي ، شكلت مع قابلياته الذهنية واستعداده الفطري الذي أشار إليه مؤرخوه (٢) مشغلاً شعرياً عني بإعادة إنتاج التراث ، وعلى وجه التحديد تلك المواطن الأكثر حراكاً في مجمل ذلك التراث ، وقد وفق من خلال ذلك إلى أن يعيد للقصيدة العربية الموروثة رونقها البنائي والأسلوبي والجمالي الذي اتسمت به في نتاجات أكابر الشعراء العرب في عصور الشعر الذهبية ، فبعد أن كاد التلقي العربي يفقد الأمل في قدرة الشكل الخليلي على تخليق خطاب يتناسب وهمومه وقضاياها الحياتية والمعرفية المعاصرة ، نتيجة ما سبق عصر الجواهري من انحدار أدبي وتقهر لبنية النص ودلالته لم تنج منه سوى مشاغل شعرية محدودة في أصقاع الوطن العربي ، غير أنها على الرغم من قيمتها التاريخية لم تبلغ بالنص الموروث ما بلغه الجواهري من استقرار بنائي ، ووعي لغوي ، وانزياح بالموضوع والدلالة في حدود مرحلته وموقعه التاريخي في المسار الخليلي للكتابة الشعرية . إن

مرجعية المتنبي للجواهري قد تجلت في مستويين :

أولاً - مستوى الرؤيا :

ثمة فرق على مستوى الدلالة بين كل من (الرؤية) و (الرؤيا) ، فالملفوظ الأول يقتزن بالبعد المادي للوقائع والأشياء ، بوصفه فاعلية إدراكية تشتغل في الظواهر والأحياز الحسية وتعتمد المنطق العقلي المجرد ، وهي بذلك تختلف عن المحمول الدلالي للملفوظ الثاني (الرؤيا) ، المستعارة من عوالم المنامات ، وهي لا تتحقق إلا في حالة انفصال عن عالم المحسوسات ، وتتفاوت بتفاوت الرائيين ، وتكشف عن علاقات بين أشياء قد تبدو للعقل متناقضة لا يربط فيما بينها أي شكل من أشكال التقارب ، كما تتجاوز الرؤيا الزمان والمكان ، إذ تتجلى للرائي أشياء الغيب خارج التسلسل الزمني وخارج المكان المحدود (٣) .

في الرؤيا الشعرية يتم اجتلاب محيط الذات إلى منطقة دلالية تنشط فيها اشتغالات مزدوجة يتعاضد فيها كل من العقل والعاطفة والمتخيل الفردي والجمعي ، ويجري اختراق البعد المادي للواقعة التي يتم إخضاعها إلى فاعلية الرؤيا بتمريرها عبر قنوات تلك المنطقة الدلالية مزدوجة الاشتغال لإعادة إنتاج الوقائع ، توصلًا إلى إحداث تغيير في بنية المكان الموضوعي ، والعدول عن المنطق الزمني والمكاني باختراقهما إلى المنطق الذاتي وتحليلات الوقائع والظواهر .

على الأديب أن يمتلك رؤيا للعالم ، رؤيا تكون قادرة على مخاطبة الجماعة بقدر ما هي مطبوعة بالطابع الذاتي والخصوصية النفسية والأسلوبية للمنتج ، أي أن الرؤيا تتخطى العالم الموضوعي ولكنها لا تغيبه ، إنها تمكن الرائي من الاستشراق ، وتهب الذات مركزية كونية ، لا بالمنحى الرئيسي الخالص ، وإنما بما يكفي منه لجعل الذات تتمحور حول الوجود ، ولجعل الوجود يتمحور حول الذات ، في تكاملية البحث والتطلع إلى ما وراء الوقائع والأزمنة والأمكنة ، مقارنة للجوهر الخبيء في مكنونها ، مقارنة تضع الأدب

باستمرار على مشارف السؤال الفلسفي .
والسؤالان الجوهريان هنا هما : أ / هل امتلك الجواهري رؤياه الخاصة
للشعر ؟ ، ب / ما هو موقع المتنبي من تلك الرؤيا ؟
إجابة على التساؤل الأول ، نزع من أنه فعل ذلك ، وتمثلت تلك الرؤيا
بالانتماء إلى ديوان الشعر العربي وسيرورته التاريخية ، وإعادة قراءته لإنتاج نصه
الفارق ، الذي يستحضر الماضي الشعري للغة العربية في اللحظة ذاتها التي يحاول
في فضائها تحقيق ذاته الإبداعية الخاصة ، فقد حاول الجواهري على مدى أكثر
من نصف قرن من الزمان أن يعصرن القصيدة القديمة التي أخذت تأكل نفسها
بعد أبي تمام والمتنبي والمعري تحديداً ، فتخفف بمقدار غير يسير من هيمنة مقولات
النظم والعقود الفريدة ، وارتداد وصلات الفصاحة والبلاغة ، لقد علم أن
الشعرية العربية القديمة قد استهلكت نفسها ، وأنها بدأت تخلي الميدان لتحول
محتم يكتسح بنية النص الشعري ، فلم يتخلف بنصه تماماً عن لحظة الرؤيا ، ولم
يحرم نظراته التراثية للشعر من مقدار ما من التجديد ، وهو أمر أخذ يبدو أكثر
وضوحاً كلما نأى به العمر عن البدايات إلى أواسطه المسكونة بالاغتراب
والاحتكاك بالثقافات العربية وغير العربية ، وخلال ذلك كله ، تجدد في القطاع
الخليلي من المتلقين الثقة والأمل بقدرة سفينة الخليل على اجتياز العاصفة ، عبر
استحالتها جزءاً من أجزاء تلك العاصفة نفسها ، واكتسابها منها مقوماتها
الجديدة ، على نحو يمكن معه القول بأن نص الجواهري هو بمثابة متحف تراثي
عرضت فيه خلاصات التجريب الشعري القديم ومورست في واجهاته تمرينات
مجتهدة لمعتقدات وعبارات ذلك التجريب ، لقد تخطى بأنموذجه الخليلي للكتابة
شعراء القرن التاسع عشر ، وشعراء أبولو والرابطة القلمية ومواطنيه الرصافي
والزهاوي ، ومجتمعات الكلاسيكية الجديدة كافة ، فلم تقدم القصيدة - في
الحدود الأبستمولوجية للكلاسيكية في عهده - خيراً مما فعل ، ممثلاً بذلك الحلقة
المفقودة بين الخليلية القديمة والخليلية الجديدة ، التي ماتزال تحاول بمشقة بالغة غير

مفضية غالباً أن توجد لها موطئ قدم يضاهي رسوخ وتنوع كائنات الشعر غير الخليلية .

يمكن القول أننا فيما لو افترضنا جدلاً أن تلك السفينة بقيت هي الوسيلة الوحيدة للرحلة إلى جزائر الشعر المجهولة ، فإنه نهض إلى حد ما بالمهمة التي نهض بها أبو تمام في زمنه حين صنع الحلقة الواصلة بين زمنين شعريين هما ما قبل أي تمام وما بعده ، كما نهض بالمهمة التي نهض بها المتنبي بعد أبي تمام ، وهذا ما فعله المعري بعدهما ، حين أدرك أن المسار الجمالي للشعرية العربية قد بلغ قمة عطائه على يد حكيمي تلك الشعرية ، فتوصل بحدسه الإبداعي إلى أن يشتغل على الجانب الفكري من النص الذي لم يبلغ من الإشباع الإبداعي والتخليق الكتابي ما بلغه الجانب الجمالي لديهما ، فكان أن أسس لالتحاق النص العربي بالجمالية الفلسفية ، التي وجدت أكفاءها من بعده لدى محيي الدين بن العربي والحلاج والنفري (٤) .

على هذا النحو وحده يمكن فهم موقع النص الجواهري في تأريخ الشعرية العربية المعاصر - في الجانب الأكثر أهمية من منجزه - ممثلاً بالتوطئة للخليلية الجديدة ، ومحاولة تبيان قدرة الشكل القديم على استيعاب شئ من المفاهيم والبنى المعرفية الجديدة للشعر ، فالجواهري يمثل للخليلية الجديدة ما يمثلها السياب لشعر التفعيلة تاريخياً (٥) وهو مثال ناجح لما دعاه إيليوت بـ " الحس التأريخي " وهو لديه ((أمر لا يمكن أن يورث ، فإن رغبت فيه ، فعليك أن تبذره بجهد عظيم)) (٦) ، وهو ما يبقى الموتى من أسلاف الشاعر أحياء ، فهو بذلك ((يتضمن إدراكاً ليس لمضي الماضي فحسب ، بل لحضوره كذلك)) (٧) ، مصداقاً لقوله عن قصائده :

فإن لا تبذ المفلقين فإنها	يقصر عنها شاعرٌ غير مفلق
سهرت لها الليلَ التمام أجيدها	أغوص على غر المعاني فأنتقي ^(٨)

إن الرؤيا الشعرية عند الجواهري تقوم على تقديم ما يمكن وصفه بالخلصات الجمالية ، عبر البحث في أرشيف النص الشعري العربي عن خير ما قدمه الشعر العربي في البناء والدلالة والإيقاع خلال رحلته الطويلة ، والناظر في رحلة النص الشعري العربي منذ الجاهلية حتى يومنا الحاضر يجدها رحلة قراءة فردية لمنتج جمعي مقترنة بإعادة إنتاج ، فلكل شاعر مرجعياته ، يعقد معها حواريات النص ، وهو عبر ذلك يقدم للمتلقي تصوره الذاتي لماهية النص ، وفهمه لطبيعته ووظيفته واختياره من احتمالياته الجمالية وتجلياته البنائية والأسلوبية والدلالية .

غير أن هذه الآلية الراسخة في عملية الكتابة منذ أقدم العصور لا تسير على الوتيرة ذاتها لدى مختلف الشعراء ، فهي سلاح ذو حدين ، يلقي بأغلب مقتنيته إلى التهلكة ، حين يضعهم في منطقة " الظل " ونعني بها تلك المساحة التي يجبرها نفوذ التجربة المقروءة في الذاكرة الجمعية ، فهي مساحة إبداعية تعد من ممتلكات المنتجين المدموغة بالطابع الشخصي ، فلكل مبدع مجاله الحيوي في هذا الحيز الافتراضي من آفاق التلقي ، ومحاولة سلبه هذا المجال الحيوي المذكور أو جزءا منه تعد عملا غير مفضٍ ، يندرج بقوة ضمن مفهوم الاستنساخ ، وحين نصل إلى هذه المنزلة من منزلات الكتابة ، نكون قد التحقنا بمفهوم الاجترار والمكابدة / الاستهلاك ، وهنا ينمحي المنتج ويحتجب تحت وطأة الظل النافذ الذي يلقيه حضور التجربة المنسوخة على المستنسخ ، فهذه المنطقة الافتراضية (منطقة الظل) هي مجمع القراءات ومبتدأها الناهض أو منتهاها المحتوم ، فمن بين تضاريسها تنطلق التجارب الانتاجية كافة ، وبين هذه التضاريس نشهد نشوء مناطق الظل الجديدة ، وتلاشي آخر .

قدم الجواهري نصا يستمد عرامته وجبروته الإبداعي في أوانه لغة وأخيلة وأسلوبا من روافد الشعر العربي أجمع ابتداءً بالشعر الجاهلي ، مروراً بتأجيات ديوان الشعر العربي كافة على اختلاف عصورها ، وصولاً إلى من عاصره من

الشعراء ، غير أن مزية أخرى أكسبت نصه سمته العراقية تمثلت في إفادته من نتاجات شعراء القرون المتأخرة في مدرسة العراق الشعرية (القرن التاسع عشر خاصة) ، وفي طليعتهم شعراء مدرسة الكوفة / الامتداد ، ممثلة برواد حلقات الدرس المعرفي في النجف الأشرف من الأدباء ، ومن قطنها وانتسب إليها من شعراء الحلة وبغداد وغيرها من حواضر العراق والعالم الإسلامي فغدوا جزءاً من نسيجها الثقافي والاجتماعي ، عبر أسماء شكلت علامات ثقافية نيرة تمثلت النص الموروث بإجادة وتصرف ووعي قل نظيره في تلك العهود التي فقد فيها الشعر هويته المعرفية وتأثيره الجمالي على امتداد جغرافيا اللغة العربية ، ولكن قسطاً من رونقه وتأثيره في التلقي عاد إليه على يد شعراء يمكن أن نعددهم مبدعين ومتفوقين حين نراعي مقاييس عصرهم ، ونقارن بين شعرهم وأرشيف الشعر العربي في عهودهم ، مثل محمد سعيد الحبوبي ، ورضا الهندي ، وحيدر الحلبي ، وجعفر الحلبي ، وكاظم الأزري ، وصالح الكواز ، والأعسم وغيرهم ، وقد تجاوزت وامتزجت تجاربهم حليين وبغداديين أو سوى ذلك في ظلال مدرسة النجف الشعرية ، التي وفرت للشعر العراقي في القرون المتأخرة مشغلاً ثقافياً جرى فيه تلقي النص نقدياً في فضاء معرفي تتحاith فيه اللغة والأدب وغيرها مع الاشتغال العقلي والنقلي المحوري للمكان ، ولا غرابة في الأمر ، فقد كان حيدر بن سليمان الحلبي شيخ الأدب العراقي في عهده ، إلى جوار صديقه الحبوبي ، وكان لهذين العلمين مكانتهما الكبيرة في نفس الجواهري ، لما مثلاه له في يفاعته من مثال أدبي يحتذى ، ولما لهما من صلة اجتماعية وثقى بأسرة الشاعر ، وقد ذكرهما في مفاصل سيرته الذاتية المثبتة في مقدمة ديوانه (٩) وقد مدح الحلبي والد الجواهري بقصيدة مطلعها :

فاق الشيوخ يافعا وسادها ندبُ ثنت له العلا وسادها (١٠)

ويحدثنا الجواهري عن حادثة زيارة الحبوبي لأبيه في دارهم ، وإيقاعه آنية

الشاي هية منه وإجلالاً له (١١) ، ويقول د. محمد حسين الأعرجي خدن الجواهري عن الحبوبي ((وكان الجواهري من المعجبين به ، وظلَّ معجباً به طوال حياته)) (١٢) ، ويتنصر للحبوبي بمقالة طويلة حين يذم صديقه أحمد حامد الصراف طرفاً من معجمه اللفظي في الخمرات والغزل ، ويقدم الجواهري عليه ، ومما قاله الجواهري في ذلك ((أخالفك وأحيد عنك في عدك الحبوبي في زمرة الشعراء الذين لم يعرفوا إلا ذاك النمط من الشعر ، ولا أحيلك على أكثر من مراجعة وصفيات السيد الخمرية والروحية حتى تدرك أن له فضل النبوغ في ظهوره لأول مرة وعلى حين غرة بمظهر الشاعر المتجدد الثائر من بين طبقاته في ذلك الفن)) (١٣) ، ويقول ((ولماذا تقول أن ليس في شعر الحبوبي ما يسمى شعراً ؟ ، أنا أعيدك من كلمة مثل هذه ، فماذا تريد بالشعر ، أوليس هذا من الشعر المملوء شعوراً وإحساساً ؟)) (١٤).

لقد كان الجواهري قادراً على تمييز الغث من السمين في الشعر ، وانتخاب مختاراته بثقة في النفس لا باتباع اتجاه مهما بلغ من الرواج ، لا يماري في ذلك ولا يدهن ، ولا يبالى أكان من ينتصر له شاعراً أنصفه الناس أم غمط حقه في ذلك ، وحديثه السابق عن الحبوبي في زمن كان فيه سوق الشعر مزدحماً بأسماء نحو الرصافي والزهاوي وحافظ وشوقي ينم عن ذلك ويدل عليه .

إن لطرف من نتاج مدرسة الكوفة - الامتداد فضيلة لا تنكر في عهده ، نظراً لحسن تمثله ما يحاكيه من العلامات النصية الفارقة ممثلة بنصوص لها حضورها الذهني في الذاكرة الجمعية ، أو محاولة الإضافة والتنويع في الأسلوب والتركيب والاختيار الإيقاعي بطريقة الإفادة من المجل لا من علامة نصية فارقة بعينها ، كما هو بين في طرف من نتاجات من ذكرناهم ، وهذا كله إنما كان نتيجة حتمية للحراك الثقافي والنشاط المعرفي المزدهر في مدينتي النجف والحلة ، فقد تموقع الدرس المعرفي في مركز هذه المؤسسة العلمية التي تمتد في عمق التأريخ الإسلامي ، وحول هذا المركز تحلقت متجهات معرفية آخر من العلوم القليلة

والنقلية ، وكانت اللغة وما ينتمي إلى فضائها موضع اهتمام كبير من لدن جمهور أولئك المشايخ والطلاب ، اهتمام أوجد للأدب والشعر مناخاً حضارياً وبيئة صحية افتقر إليها قروناً ، وهو أمر يمكن تبينه بيسر بتصفح كبريات تواليف تلك الفترة في العقيدة والفلسفة الإسلامية والأدب ، إذ نلاحظ حرصاً جلياً على رقي العبارة ، وسلامتها البنائية واللغوية ، بما ينم عن ولع بالأدب ، وسعة مطلع على التراث ، وهو أمر لم يقتصر على شريحة الشعراء والأدباء وحدهم ، بل هو جلي أيضاً لدى الكثير من شيوخ العلم ، وكبار الفقهاء ، فالكثيرون منهم قد جمعوا بين الدرس العقائدي وكتابة الشعر ، فكانوا علماء شعراء ، منهم على سبيل المثال : السيدان جعفر وحسين ابنا السيد مهدي القزويني ، ومنهم من بلغ مرتبة الاجتهاد مثل السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ محمد حسن كبه والشيخ محمد حسن صاحب جواهر الكلام (جد الشاعر محمد مهدي الجواهري) ، والشيخ مهدي بن الشيخ علي كاشف الغطاء ، وغيرهم ، مما يدل على مكانة الأدب الرفيعة في تلك المؤسسة العلمية العريقة وتكامله مع خطابها العلمي ، وقد كان ظهور شاعر مثل محمد مهدي الجواهري نتيجة حتمية لذلك المخاض الأدبي والعلمي الطويل الذي تجاوز فيه الشعر والدرس المعرفي ، وكان فيه الشعر فاكهة المجالس العلمية ، وموضع اهتمام جمهور المثقفين في النجف الأشرف بوصفها منارة الثقافة العراقية وسفينة نجاتها خلال القرون المظلمة التي تحبّطت خلالها الثقافة العربية طويلاً ، وفسد الذوق الأدبي وانهارت بنية اللغة ، وخبت جذوة الإبداع الشعري .

غير أننا لا نجد بين كل هذه الأسماء الكبيرة شاعراً نجفياً جعل من شعره قراءة لمجمل ديوان الشعر العربي خلا الجواهري ، فقد اختص كل شاعر بمجموعة أو اتجاه بعينه من ديوان الشعر العربي ، أما الجواهري فقد انشغل بالجميع ، القدماء من جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، مروراً بشعراء القرون المتأخرة ، وصولاً إلى من عاصروهم ، فمساحة حواريات النص تغطي تلك

السيرورة بكفاءة منقطعة النظير ، فنجد تداخلا مع نص جاهلي بجوار تداخل آخر مع نص عباسي ، وتداخلا مع نص من القرون المتأخرة بجوار تداخل مع نص إسلامي ، وهكذا تجاور في حواريات الجواهري شعراء من عصور أدبية مختلفة مثل النابغة والمهلهل والفرزدق والحطيئة والكميت وأبو نؤاس وصفي الدين الحلي والصنوبري والأرجاني والرصافي وشوقي وحافظ في نص واحد بانسجام وتآلف يتم خلاله إعادة إنتاج النصوص المقروءة عبر حواريات النص ، وقد مثلت هذه النزعة الحوارية الجانب التطبيقي من الرؤيا الشعرية عند الجواهري ، وهو جانب مهد له في يفاعته بديوانه الأول (حلبة الأدب) ، الذي بارى فيه غرر القصائد العربية القديمة ، وتمثل الجانب النظري منها بمختاراته الضخمة من الشعر العربي التي جمعها في كتاب وسمه بـ (الجمهرة) .

أما ما يتعلق بالسؤال (ب) ، فإن موقع المتنبي في رؤيا الجواهري موقع متصدر ومحوري ، عبر حواريات نصين يتلاقى فيهما قديم مدرسة الكوفة الشعرية ممثلاً بالمتنبي صوتها الأعلى في القدماء من طرف ، وبالجواهري بوصفه امتداداً طبعياً لتلك المدرسة وصوتها الشعري الأعلى في العصر الحديث ، وفتحة ما ندعوه بالخليلية الجديدة ، وما يدعى أحياناً بقصيدة الشعر ، في منظور يلهم لإقامة معادلة اصطلاحية مفتعلة مع قصيدة النثر بوصفها ملفوظاً اصطلاحياً ضبابياً لم تتضح ملامحه ولم تستقر دلالاته فيما قدمه التجريب العربي في صده ، ولنا فيها رأي ومقترح نقدي لم ننشره بعد ، ونصائيات مخطوطة .

يرشدنا الجواهري نفسه إلى الموقع الرؤيوي المحوري للمتنبي عنده ، في شعره وفي مقالاته ، ففي قصيدته التي ألقيت في مهرجان الذكرى الألفية للمتنبي في دمشق ١٩٥٣ ، ووسمه فيها بـ (الشاعر الجبار) وهو عنوانها ، أعرب عن دواعي إجلاله وإعظامه للمتنبي ، وفي مقدمتها ثوريته العاصفة وتمرده وعمقه ، وقد دعاه بجملة من الصفات الدالة والمفصحة عن منزلته لديه نحو (الألمي ، العبقرى ، الكوكب الجديد ، المارد العظيم ، النبي ، خصم الملوك ، وغير

ذلك)، ومما جاء فيها :

وُلِدَ الأَلْمَعِيُّ فالنَّجْمُ واجِمٌ	باهتٌ من سطوع هذا المزاحِمِ
أُتْرِى عالمُ السمواتِ ينحد	ط جلالاً عن واطئات العوالم
قال نجمٌ لآخرٍ لیت أني	لثرى الكوفة المعطر لاثم
ولبيت أناره عبقري	لم يُنَوِّرْ بمثله الأفقُ خادِم
كيفما شاء فليكن إن فكراً	عبقرياً على المجرة حائِم
أيها المارد العظيم تقبَّلْ	ضرباً تستشيط منه الضرائِم
وسلامٌ عليك يوم تُناوي	لؤمَ أطماعهم ويوم تُهاجِم
إنما يبعث النبي إلى العا	لم بيت مهفهِف النور قاتم
إيه خصم الملوك حتى يقيموا	لك أمثلة النظير المزاحِم (١٥)

وفي مقالته الأدبية التي قدم بها كتابه (الجمهرة) ، يقف وقفة مطولة مع كتابي د. طه حسين (الأدب الجاهلي) و (مع المتنبي) يرد فيها ما جاء فيهما بأسلوب جدلي ، يحتكم إلى الاستبصار العقلي ، والمعيار المنطقي ، كما في اعتراضه على أخذ المؤلف بالمعيار العرقي في المفاضلة بين شعرائنا القدماء ، وانتقاصه من دعاهم الجواهري بالشعراء الأعلام الستة ، مشيراً إلى رأي الدكتور بأنه لا ينبغي أن يُعتدَّ بالطائيين ﴿ وعنى بهما أبا تمام والبحري ﴾ ولا بالسيد الحميري ، فهم - بحسب تعبير ذلك المؤلف - كأبي نؤاس وابن الرومي والمتنبي لم يكونوا من العرب في شئ ، وإنما قالوا الشعر عن تعلم وصناعة في غير لغتهم الطبيعية - بحسب تعبيره - لأنها أصبحت في زعمه لغة الأدب بحكم الدين والسياسة ، وحجته في الدعوة إلى ترك الاعتداد بهؤلاء الستة هي أن الشعر في العصر العباسي أصبح شائعاً بين العرب والموالي أنفسهم ، فلا ينبغي الاعتداد بهؤلاء (١٦) ، ومما قاله الجواهري في ذلك أيضاً ((بيد أن الدكتور طه ، سرعان ما يتحامل بكل قسوة وظلم وتحييز على كل شيوخ العلم والأدب والرواية

والحديث والشعر - والشعر بخاصة - من ذوي أصل غير عربي ، ممن ساهموا مساهمة عظيمة في خدمة الحضارة الإسلامية .. وهو حين يتحدث عن الموالي من هؤلاء الشيوخ فإنما يتحدث بلغة الجاهلية نفسها ، بل إنني لا أظلم الجاهلية بذلك فلم يكن العربي الجاهلي يتحدث عن استرققه بمثل هذا الحقد ولا بمثل هذه الغطرسة .. ناهيك عن نفي العروبة عن أعظم الشعراء العرب)) (١٧) ، ويشعر القارئ أن استرسال الجواهري في رد مزاعم المؤلف إنما هو توطئة للدفاع عن المتنبي - شاعره الأثير - وإن انتصر خلال حجاجه النقدي لمن دعاهم الشعراء الستة الأعلام ، غير أن ذلك المؤلف قد استجاش في انتقاصه من المتنبي - بخاصة - بين كل هؤلاء الأعلام وتراً حساساً في ذات الجواهري المجلة للمتنبي يقينا لاسيلا إلى المغالطة والمراوغة فيه ، وهو ما يظهر بنحو بين في قوله ((فهل استطعت أن أقرب إليك الدكتور طه في كتابه الأدب الجاهلي وعجائبه ؟ ، وأفطع ما في هذا القول الفظيع أن المتنبي العظيم - عنوان التاريخ العربي ومجده الشامخ - لم يصبح أعجميا فحسب ، بل ومضرب المثل في ذلك (كالمتنبي) على حد تعبيره !! ، أي على قاعدة أن المشبه به أقوى من كل المشبهين !!)) (١٨) .

إن عبارة الجواهري ((المتنبي العظيم عنوان التاريخ العربي ومجده الشامخ)) تدلنا بنحو بين على موقع المتنبي في رؤيا الجواهري الشعرية ، موقع دعاه إلى الانتقال من كتاب (الأدب الجاهلي) إلى كتاب المؤلف الآخر (مع المتنبي) الذي تؤكد عبارات الجواهري المحترمة غضبا في الرد على مضمونه الذي يراه معاديا للمتنبي عدا ليس من العلم والموضوعية في شئ أن المتنبي لم يكن محض شاعر من بين من حاورهم الجواهري من الشعراء ، وفيهم من يصفهم بالأعلام كما مر ، بل كان يحتل لديه مرتبة عليا لاتداني ، فقد رأى فيه نسيج وحده في مجمل الشعر العربي و خلاصة وعي الشعر التي بلغت بجماليات الفن الشعري القديم تخوم الكمال ، فكأن الجواهري في العبارات المحترمة الآتية يدافع عن معتقده ويقينه ونفسه ، وليس عن شاعر بين المثين من الشعراء : ((أما المتنبي

فللدكتور طه حسين معه - وحده دون غيره - ثارات جاهلية لا تُنسى ، ولم يتشف منها بكتابه الأدب الجاهلي حتى أضاف إليها كتابه المتنبي .. ولم يشفع عنده للمتنبي أنه الثائر العربي الأصيل على كل ما في أمته من عيوب ومن جيوب .. ((١٩). تحيلنا عبارات الجواهري السابقة على جانب آخر من جوانب موقع المتنبي في رؤياه الشعرية - سوى التكامل الفني والجمالي - ممثلاً بحفاوته بالتمرد الذي يركز إليه منجز المتنبي ، التمرد على بنية النص الموروثة ومسكوكات القول الجاهزة (وهو أمر قاده إلى المغايرة في اللغة الشعرية والأسلوب والدلالات) ، مصحوباً ومتوازياً مع التمرد الفكري (وهو أمر قاده إلى القطيعة مع الأنساق المهيمنة وموجهات الحياة في عصره والاصطدام بالواقع والخروج عليه) وهما ملمحان رئيسان من ملامح سيرته ومنجزه وقعا موقعا حسنا من نفس الجواهري الثائرة المملأ بالتمرد والجياشة بالمطامح الجسام ، وهي نزعة جعلت منه شاعرا ملتزما ، صب جام غضبه على الطغاة والاستعباد ، وانتصر للمستضعفين من خصوم الحرية والكرامة الإنسانية ، وهي نزعة " متنبئية " بينة وجدت لها مستقرا في مواطنه المعاصر لتطل بأسلوبية جواهريّة قديمة جديدة في آن معاً في قصائد دوت في الآفاق مثل " تنويم الجياح " و " دم الشهيد " و " أخي جعفر " و " آمنت بالحسين " ، و " الثورة العراقية " و " الوحدة العربية الممزقة " ، و " أم عوف " ، و " ابن الثمانين " وغيرها من غرره التي رددتها الجموع طويلاً ، وقد عبر الجواهري عن إجلاله وحبّه لنزعة التمرد هذه في قصيدته (أيها المتمردون) المهداة - بتعبيره - " إلى أرواح الشعراء المتمردين ، ومنها قوله :

أساتذتي أهل الشعور الذين هم	مناري في تدرييتي وعمادي
لئن جئت عن أزمانكم متأخراً	فإني قريب منكم بفؤادي
وعندي منكم كل يوم مجالس	ترف بها أرواحكم ونوادي (٢٠)

ثانياً - المستوى النصي :

غير أن موقع المتنبي في رؤيا الجواهري الشعرية لم يقف عند حدود دينامية النص أو ما وراء الخطاب - مما اجتهدنا في استنطاقه فيما تقدم ، بل كان له تظهره النصي / بصماته اللغوية والدلالية التي يمكن اجتلاؤها بالحفر في فضاء العبارة الشعرية عند الجواهري ، وفيما يأتي سنعرض لبعض تلك الحواريات الممتدة والمتسمة بالوفرة لديه ، وسنقسمها إلى فئتين هما : الحواريات الكابية ، والحواريات المنتجة :

أ - الحواريات الكابية :

وقد بدا الجواهري فيها تابعا لما يحاوره من نصوص المتنبي ، يكاد أن يعيدها كما هي ، أو ينجح إلى الشرح والتفسير لما يحاوره ، وأكثر أمثلة هذه الفئة تنتمي إلى بواكيره الشعرية ، ومنها ما يأتي :

الجواهري :

ومن أخلفته في المعالي قضية تكفل في إنتاجها الصارم العضب (٢١)

المتنبي :

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم (٢٢)
بدا الجواهري في هذه الحوارية قاصراً عن اللحاق بما يحاوره ، فاقتضاء الحاجات بلسان (السيف) دعوة تنسجم تماماً مع عصر المتنبي ولا تنسجم مع عصر الجواهري ، عصر الطائفة والدبابة والمدفع والبندقية ، كما أن نص المتنبي أكثر إدهاشاً للمتلقي من نص الجواهري لأنه أودع بنية الشد والتفجير الممثلة بجملة الشرط وجوابها فائدة معرفية هي أدعى إلى تشويق المتلقي بجعله السيف سؤالاً بـ (هل) ، وانعدامه جواباً بـ (لم) وهي مماثلة موفقة بين الدلالة المستهدفة بالتركيب وما يتولى إيصالها من الكلام ، مما جعل من نص الجواهري

حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري (٢٨١)

محاوره هشة بإزاء تماسك نص المتنبي وجماليته وانسجامه مع واقعه المعيش ، وقد بدا نص الجواهري تفسيراً لقول المتنبي الآخر في هذا المعنى :

من أطاق التماس شئ غلاباً واغتصاباً لم يلمسه سؤالا (٢٣)
وقوله :

فلا قضى حاجته طالبٌ فؤاده يخفق من رعبه (٢٤)
وقوله :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الناس طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دمٌ فتسقي إذا لم يسق من لم يزاحم (٢٥)

(٢)

الجواهري :

ومن يتطلب مصعبات مسالكٍ فأيسرُ شئٍ عنده المركبُ الصعبُ (٢٦)

المتنبي :

ذريني أنل ما لا يُنال من العلى فصعبُ العلا في الصعب والسهل في
السهل (٢٧)

ومن خلقت عيناك بين جفونه أصاب الحدور السهل في المرتقى
الصعب (٢٨) .

نحسب أن التوفيق قد جانب الجواهري في حواريته هذه أيضاً ، من نواح
عدة ، منها أن نص المتنبي الأول ذو بنية خبرية مستقرة الدلالة تؤهله لأن يوصف
بكونه حكمة قابلة للتداول الجمعي لأنها تحمل إقناعاً وتتوفر على الاعتدال ،
وتتحلى بالإيجاز كما أن التعالق يبدو أكثر وضوحاً لدى المتنبي بين جملة الشرط
وجوابها في منطق الشعر إذ ناسب سياق الغزل (في البيت الثاني) بعقده المماثلة
بين القوة التي لا ترد وعيني تلك المرأة ، فيما بدت البنية الانشائية لنص

الجواهري غير مستقرة الدلالة لإتيانه بالجواب على سبيل القطع ، فيما أن من غير المحتم أن يقترن الطموح بالشجاعة ، فالطمع والرغبة بالاستزادة من المعالي هي من السمات الكامنة في كل نفس ، لكنه وحده ليس كفيلاً بجعل الصعب سهلاً في النفوس كلها كما قطع بذلك الجواهري ، كما بدت في نصه سطوة نص آخر للمتنبى ، حتى بدا تفسيراً وشرحاً له ، وهو قوله :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحــــــــــــــــول^(٢٩)

(٣)

الجواهري :

ومن لم يجد إلا ذُفَافَ مذلةٍ وروداً فموت العز مورده عذب^(٣٠)

المتنبى :

فُتِبَ واثقاً بالله وثبةً ماجدٍ يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم^(٣١)
وهذه الحوارية أيضاً تدرج في سياق التفسير - وهو أهون أشكال الحوار وأضعفها - فلم يزد فيه الجواهري على إيضاح النص الغائب الذي يحاوره ، غير أن لنص المتنبى فضيلتي السبق إلى المعنى وتماسك البناء ، بينما ضاقت العبارة بالجواهري فاضطر إلى استعمال المصدر (ورود) والأولى أن يستعمل اسم المكان (مورد) في محلها ، فيقول " لم يجد مورداً " ، وليس " لم يجد وروداً " ، ولا سيما أنه ذكر " مورد " في العجز ، فانتفى التوازن والتناسب .

(٤)

الجواهري :

وهل يظماً اللاوي من الذلّ جانباً ويبيضُ الظُّبا رِقراقها عللٌ سكَبُ^(٣٢)

المتنبى :

أيملك الملك والأسياف ظامئةً والطير جائعةٌ لحمًا على وضم^(٣٣)
استفهم المتنبي استفهاماً إنكارياً مفاده أن الملك قرين القوة ، وقد كنى عن
ضريبة الملك من الدماء بعبارة (لحمًا على وضم) ، وقد أزاح الجواهري الظماً
من السيف إلى صاحبه ، وجعل السيف ساقياً للظامئ إلى الملك ، وفي ذلك زيادة
حسنة وتصرف ، غير أن قاموسية ألفاظ مثل (اللاوي ، الظبا ، علل) ذهبت
ببهاء هذه الزيادة .

(٥)

الجواهري :

لقد عظموا قدراً وبطشاً وإنما على قدر أهلها تكون الوقائع^(٣٤)

المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^(٣٥)
لعل الجواهري لم يكن موفقاً في اختياره الحواري هذا ، نظراً لوقوع
اختياره على أحد الأبيات ذائعة الصيت للمتنبي ، مما يجعل صوت النص الغائب
بدويه الهائل كفيلاً بإخفات وإضعاف أية صوت لنص حاضر يحاوره ، ولعل
البون بين النصين المتحاورين يحدث عن نفسه .
وقد وقع الجواهري في مثل هذا في قوله :

بعد عشرٍ مشتٍ بطاءٍ ثقالاً مثلما عاكست رياحُ شِراعا^(٣٦)
الذي يحاور حكمة المتنبي الشهيرة :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن^(٣٧)
في قوله أيضاً :

ولو أردت بكِ التفرّيع عن مقّةٍ لقلتُ أنفكِ رغم العزِ مجتدع^(٣٨)
محاوراً قول المتنبي :

- ليس الجمال لوجهٍ صحَّ مارنُهْ أنف العزيز بقطع العز يُجَدِّعُ^(٣٩)
وقوله :
فما انتظارك ميتا لا ضمير له حزما فلا الخوف ذو شأن ولا الطمع^(٤٠)
محاورا قول المتنبي :
من يهن يسهل الهوان عليه ما الجرح يميت إيلام^(٤١)
وإن قول الجواهري :
تمكن ذو طول فأصبح حاكما وجنب مدحور فأصبح راهبا
وفاتت أناس قدرة فتمسكنوا ولم يخلقوا أسدا فعاشوا ثعالبا^(٤٢)
ليس سوى شرح لقول المتنبي :
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم^(٤٣)
وقوله الآخر :
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال^(٤٤)

(٦)

الجواهري :

- وما ضرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع^(٤٥)
وهذا النص من كبوات الجواهري الحوارية ، نظراً لتقليديته التامة ،
ولغته غير المتمية إلى عصرها ، فلا يمكن لنا أن نتوقع بحال صموده في محاورته
لمثل قول المتنبي ، المتوفر على الغاية في التكثيف والإيجاز :
يقعد عداها بلا ضارب ويسري إليهم بلا حامل^(٤٦)
وقوله :
فإن كان خوف القتل والأسر ساقهم فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعل
فخافوك حتى ما لقتل زيادة وجاؤوك حتى ما تزداد السلاسل^(٤٧)

وقوله :

نفسه جيشه وتدبيره النص ر وألحظه الظبا والعوالي^(٤٨)

(٧)

الجواهري :

لئن شكر الصبح المحبون إنني شكرتُ الدجى إذ كان ما بيننا سترًا^(٤٩)

المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي^(٥٠)
وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب^(٥١)

ليس في حوار الجواهري لنصي المتنبى أية تصرف أو زيادة تذكر ، بل تخلف عن اللحاق بصاحبه حين فسر في عجز بيته ما ذكره في صدره ، بينما أوكل المتنبى الاستدلال في نصيه إلى قدرة المتلقي على التأويل ، فهما وأمثالهما مما تمتحن به العقول ، وقد نالا إعجاب الكثير من قراء المتنبى ودارسيه في مختلف العصور .

(٨)

ويبدو قول الجواهري :

حمل فؤادي ما تشاء يطق به إلا جفاك فذاك لست أطيعه^(٥٢)
إعادة شارحة لقول المتنبى :
إنني لأجبن من فراق أحبتي ويحس قلبي بالحمام فأشجع^(٥٣)

(٩)

إن نحن رفعنا من قول الجواهري :

حشاشة نفس أجهدت فيك والهوى يطاردها عن قصده وتطارد^(٥٤)
كلًا من عجز بيت المتنبى القائل :

أهم بشئ والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد^(٥٥)
وعبارة (حشاشة نفس) في صدر بيت المتنبي الآخر :
حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أي الظاعنين أشيع^(٥٦)
لم يبق للجواهري من البيت سوى قوله (أجهدت فيك والهوى) .

(١٠)

الجواهري :

أنا باهيت بموتي في الهوى لا بشوقي أين من لم يشتق^(٥٧)

المتنبي :

وعذلت أهل العشق حتى ذقتُهُ فعجبتُ كيف يموت من لا يعشق^(٥٨)
ينتهج الجواهري في حواريته هذه مناقشة النص الغائب ، وهو إجراء
حواري يوفق فيه عادة ، غير أنه وقع في هوة التهويل العاطفي في التعبير عن
الهوى في قوله (باهيت بموتي) فانطفأت جذوة الحوار الناجح مع النص الغائب
ذي السمة الحكيمة المتخففة من التهويل .

(١١)

وان قول الجواهري :

وما أختار ناحيةً لأنني رمانى الدهر من كل النواحي^(٥٩)
لم يصف شيئاً إلى قول المتنبي :
رمانى الدهر بالأقذاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهامٌ تكسرت النصال على النصال^(٦٠)
بل قصر عنه تقصيرا كبيرا ، فلا مقارنة بين صورة النصال التي تكسرت
فوق بعضها لكثرتها وقول الجواهري (من كل النواحي) الممتلىء بالمباشرة
والمنشغل بالشرح عن جوهر فكرة الأذى عند المتنبي .

(١٢)

كما بدا قول الجواهري :

فما حز في نفسي كغدر غادرٍ له ظاهر بالمغريات مغلفٌ^(٦١)
شراحا لقول المتنبي :
فلا تغرك ألسنة مَوالٍ تقلبهن أفئدة أعادي^(٦٢)

ب- الحواريات المنتجة :

وهي التي بدا الجواهري فيها متحررا من سطوة ما يحاوره من نصوص المتنبي ، فهو يقف فيها على مسافة مقبولة مما يقرؤه قراءة مفضية ، تعيد إنتاج المقروء ، ومن أمثلة هذه الفئة ما يأتي :

(١)

يحاور قول الجواهري :

ودعتُ شرخ صباي قبل رحيله ونصلت منه ولات حين نصوله
وأرى الصبا عجلا يمر وإنني ساعدت عاجله على تعجيله^(٦٣)
قول المتنبي :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي موفورة ولماء وجهي رونقُ
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرقُ^(٦٤)

وعلى الرغم من أن المعنى متقارب ، والألفاظ متداخلة ، فإن الجواهري قد أضفى على حواريته قدراً من الزيادة في قوله (ساعدت عاجله على تعجيله).

(٢)

ويحاور قول الجواهري :

وبلدتُ حتى لا ألد بمفرح حذر انتكاسته وخوف عذوله^(٦٥)

وقوله :

في ذمة الله ما ألقى وما أجدُ أهذه صخرة أم هذه كبدُ ^(٦٦)

قول المتنبي :

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ ^(٦٧)
غير أن الجواهري قد غاير الأصل حين أفصح عن سبب تبلده ، فيما
اكتفى المتنبي بالتساؤل عنه .

(٣)

ويحاور قول الجواهري :

ما حطمت جَلدي يدُ النوبِ لكن تحطمت النوائبُ بي ^(٦٨)

قول المتنبي :

إن نيوب الزمان تعرفني أنا الذي طال عجمها عودي
وفي ما قارع الخطوبَ وما أنسني في المصائب السودِ ^(٦٩)
ولعل نصي المتنبي والجواهري ظهرا هنا كفرسي رهان في الإجابة
والإحسان .

(٤)

يحاور قول الجواهري بشئ من التصرف :

أنا صخرة ما إن تخوفني هذي الرياح الهوجُ بالصخبِ ^(٧٠)

قول المتنبي :

أنا صخرة الوادي إذ ما زوحتُ وإذا نطقْتُ فإنني الجوزاءُ ^(٧١)

(٥)

الأمر ذاته يصح في قول الجواهري :

أخجلته بالضحك أحسبه كمخوفٍ للبيع بالغربِ ^(٧٢)

الذي يحاور قول المتنبي :

فلا تنلك الليالي إن أيدِيها إذا ضَرَبَ كسرن النبع بالغَرَبِ (٧٣)
غير أن المتنبي جعل المستحيل ممكناً (كسر النبع بالغرب) إذا غدرت
الليالي ، وعدل الجواهري عن هذا .

(٦)

ويحاور قول الجواهري :

و مناشدي نسبا أمتُ به لم يدر ما حسبي وما نسبي
عندي من الأموات مفخرة شماء مريية على الطلب
لكن أنفت بأن يعيد فمي للناس عهد الفخر بالعصب
حسبي تجارب مهت بها وإلى البلايا السود متسبي
وبذي وتلك كفايتي شرفا يُرضي العلأويسرُ قبر أبي (٧٤)
جمعا من نصوص المتنبي الدائرة في سياق العدول عن الفخر بالآباء إلى
الفخر بالنفس ، مع الإشادة بهم ، نحو قوله :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ما أبتغي جل أن يُسمى
وإنني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما (٧٥)
وقوله :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ باحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله
فخرا لعصب أروح مشتمله وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر إذ غدوت به مترديا خيره ومنتعله (٧٦)
وقوله :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد (٧٧)

(٧)

وقد أجاد الجواهري في قوله :

حيث أم فرات إن والدةً بمثل ما أنجبت تكنى بما تلدُ (٧٨)
محاورا قول المتنبي :
ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ لكان أباك الضخم كونك لي أماً (٧٩)

(٨)

وفي قوله :

يا أندنوس إن استمات بنوكِ فالحرب أمك والكفاح أبوكِ (٨٠)
محاورا قول المتنبي :
وإن عمرت جعلت الحرب والدةً والسمهري أخاً والمشرقي أباً (٨١)

(٩)

الجواهري :

إلام التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموت هذا التنازعُ (٨٢)

المتنبي :

إلى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي (٨٣)
يتفوق نص الجواهري على نص المتنبي في حواريته هذه ، على ما نرى ،
لأنه جاء بزيادة مستحسنة بعبارة (على المتواني .. إلخ) ، أعانه عليها امتداد
فضاء البحر الطويل ، فيما أسف المتنبي قليلاً بقوله (التمادي في التمادي) الذي
بدا مضطراً إليه لملأ الشاغر العروضي في فضاء بيته ، فلا معنى للتمادي في
التمادي ، كما أن لا معنى على سبيل المثال للعطش في العطش أو التشافي في
التشافي وما إلى ذلك من التراكيب الأقرب إلى الافتعال واللعب باللغة .

(١٠)

الجواهري :

إذا أنت لم تأكل أُكِلْتَ وذلةٌ عليك بأن تُنسى وغيرُكَ شائعٌ^(٨٤)

المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رحمه غير ظالم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بأثم^(٨٥)
أتى المتنبي بهذا المعنى بما يحاكي العبارة الفقهية في قوله (غير ظالم) ،
ولعله استشعر وطأة هذه الدعوة على المتلقي فبادر إلى بيان ما دعاه إلى ذلك في
بيته الثاني ، وحجته في الاستدلال هي أن الناس لن يرحموا إذا ظفروا به ، وقد
تفوق الجواهري على المتنبي في حواريته مع هذا المعنى بما توفر عليه نصه من إيجاز
أو تكثيف غير مخل ، أسقط فيه الاستدلال والشرح الذي جاء به المتنبي ، وأتى
بزيادة حسنة في قوله (وذلة عليك بأن تُنسى إلخ) فجمع حكمتين في فضاء بيت
واحد ، غير أنه تخلف بالمعنى ذاته في حوارية أخرى مع نص المتنبي نفسه أعاد
فيها النص كما هو ، قائلاً :

ولا تكذبن ما في البرية راحمٌ ولا أنت فاترك رحمة عنك جانباً^(٨٦)

(١١)

الجواهري :

إذا استكروها طعم الممات فأبطأوا أتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا^(٨٧)

المتنبي :

أنفُ الكريم من الدنية تاركٌ في عينه العدد الكثير قليلاً
والعار مضاضٌ وليس بخائفٍ من حتفه من خاف مما قила^(٨٨)

لكل من نصي المتنبي والجواهري جمالياته البنائية والدلالية ، غير أن
لنص الجواهري فضيلة الإيجاز ، فقد أتى في بيت واحد بمعنى استغرق من المتنبي
مساحة أكبر لاستقصائه .

(١٢)

ويحاور قول الجواهري :

أعندك علمٌ أنني من معاشرٍ أبوهم جنى واختار أدنى المسالكِ
رماهم إلى شر المهالكِ آدمٍ فهم أبرياءَ حملوا وزرَ هالكِ^(٨٩)
قول المتنبي الشهير الذي أنطق فيه حصانه وجعله يقول له :
أبوكم آدمٌ سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان^(٩٠)
وعلى الرغم من أن لنص المتنبي فضيلة لا تدفع في استنطاق الحيوان غذته
بمفارقة طريفة ، فإن نص الجواهري لم يخل من الإحسان ، وقد عدل عن طرافة
المفارقة إلى جدية التأمل العقلي شبه الفلسفي في جدلية الخطيئة والبراءة .

(١٣)

ويحاور قول الجواهري :

كاذبٌ مانال شعبٌ بسوى القسوة نالا
يا يراع الحرقد ضا ق بك الحر مجالا
فصموتا فلکم جر لك النطق وبالا^(٩١)

قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد لل سيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً قبل الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم^(٩٢)
وعلى الرغم من علو صوت النص الغائب ، فإن نص الجواهري لم يبد
تابعاً ضعيفاً لما يحاوره ، فقد كان له خصوصيته في البناء والدلالة والتعبير عن

لسان حال القلم .

إن إنطاق المتنبي لأقلامه - كما أنطق حصانه - هو إجراء موفق للتعبير عما يعتقده ، يتفوق به على نص الجواهري الذي يحاوره ، غير أن الجواهري أضاف إلى ما يحاوره عنصراً من صميم واقع المعاصر وهو الدفاع عن قضايا الشعوب المستضعفة ، لم يجعل من نصه نسخة أخرى فحسب ، أو محاكاة قاصرة للأصل .

(١٤)

ويحاور قول الجواهري :

أملٌ أخشى عليه زمني فلو اسطعتُ أطلتُ الزمنا^(٩٣)

قول المتنبي :

أريد من زمني ذا أن يُلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن^(٩٤)
يرى المتنبي أن حجم الزمن يقصر عن احتواء غاياته الجسام ، وقد تصرف الجواهري بهذا المعنى بنحو حسن ، تخفف فيه من علو صوت الأنا وصخبه في نص المتنبي بجعله الغاية من رغبته بإطالة الزمن هي تحقيق أملٍ من آماله فحسب .

(١٥)

ويحاور قول الجواهري :

لا تخله في هناءٍ ظاهرٍ كل من في الأرض لا يدري الهنا^(٩٥)
وقوله :

فمن أين للحساس قلب يريحه ومن أين للقلب الغبي غرام^(٩٦)

قول المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم^(٩٧)

وقوله :

أفاضلُ الناس أغراضُ لذا الزمنِ يخلو من الهم أخلاهم من الفطنِ^(٩٨)
غير أن الجواهري بدا مناقشا للنص الذي يحاوره ، فبينما قصر المتنبي
الشقاء على ذوي النهى والتأمل والتفكر ، نجد الجواهري معمما لحالة الشقاء
على كل حي ، وهي زيادة هينة ، غير أنها لم تجعل من نصه إعادة مطلقة .

(١٦)

يحاور قول الجواهري :

بثت إليه أنه توهن الصفا فلما تغاضى صح لي أنه حجر^(٩٩)
قول المتنبي :

ولو حملت صم الصخور الذي بنا غداة افترقنا أو شكت تتصدعُ^(١٠٠)
وقد بدا البيتان كفرسي رهان في الإجادة ولطف المعنى ، غير أن المتنبي
تخفف من القطع بذكاء ينم عن دقة تعبير بقوله (أو شكت) فلم ينسب إلى
الصخور ما ليس لها قاطعا ، وإنما جاء به على سبيل الاحتمال ، فيما كان
الجواهري قاطعاً بأن صاحبه حجر ، فعبارة المتنبي أدنى إلى الاعتدال منها إلى
التهويل .

(١٧)

ويحاور قول الجواهري :

أنا خصم كل منافقٍ لم ينهني حذرٌ ولم يقعد بي الكتمانُ^(١٠١)
قول المتنبي :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود^(١٠٢)
غير أنه أفاد من عموم النص ولم يكرره ، وإنما اجتهد في إضافة ما يعبر
عن تجربته الذاتية ، فأجاد .

(١٨)

الجواهري :

حالت عن العهد البلاد كأنها لبست لفقدهم ثياب حداد^(١٠٣)

المتنبي :

كأن الجفون على مقلتي ثياب شققن على ثاكل^(١٠٤)

أزاح الجواهري فعل الحزن من (الجفون) المذكورة في نص المتنبي إلى (البلاد) ، وعلى الرغم من أنه لم يتفوق على ما يحاوره ، فإنه التفت التفاتة ذكية أفلت بها من سطوة نص المتنبي بعدوله عن الثياب المشقوقة التي شبه بها المتنبي جفونه على عينيه الباكتين إلى ثياب الحداد عامة مفيدا من دلالتها اللونية على السواد ، بينما ارتكز المتنبي إلى التعالق التصويري بين الثياب المشقوقة والعينين الباكتين .

(١٩)

وهل يمكن لنا أن نقرأ قول الجواهري :

نام الرشيد عن العراق وما درى عن مصره فرعون ذو الأوتاد^(١٠٥)

فلا يحضر في ذهننا قول المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بضمن وما تفنى العناقيد^(١٠٦)

غير أن الجواهري أبقى النص الذي يحاوره بمثابة خلفية تاريخية للمشهد السياسي الجديد الذي يرصده نصه ذو المحمول الدلالي المعروف ، وخلا نصه من المحاكاة المجردة والتقليد الأعمى .

(٢٠)

يحاور قول الجواهري :

حاش لله بقايا ذمة منك أن تشمت بي خصما ألدًا^(١٠٧)

قول المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقةً أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ
وبيننا لورعيتم ذاك معرفةً إن المعارف في أهل النهى ذمم^(١٠٨)
لم يفق الجواهري هنا ما يحاوره ، بيد أنه لم يتخلف عنه .

(٢١)

الجواهري :

خطت على أوساطها خضرةً سبحان من قدرَ هذا النطاق^(١٠٩)

المتنبي :

وخصرٍ تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقاً^(١١٠)
أزاح الجواهري النطاق من الزنار إلى خضرة المرج ، والخصر من الجسد
إلى الأرض الخضراء ، فنجى من الاستساخ ، غير أن نص المتنبي في ظننا بقي هو
الأفضل .

(٢٢)

ويحاور قول الجواهري :

نسبٌ بيننا الهوى احفظني حرمة النسب^(١١١)

قول المتنبي :

وبيننا لورعيتم ذاك معرفةً إن المعارف في أهل النهى ذمم^(١١٢)
وقد أضفت خفة الإيقاع وإيجاز العبارة على نص الجواهري رونقاً ، وإن
لم ينج تماماً من سطوة الأصل .

إن مواطن الحوار بين النصين كثيرة من كلا المستويين المشار إليهما آنفاً ،
غير أننا سنكتفي بما تقدم من النصوص تجنباً للإطالة ، فقد بدا لنا أن ما انتخبناه
من تلك المواطن الكثيرة قد يسهم في اجتلاء فكرة هذه المقاربة ، ومنح المتلقي

حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري (٢٩٧)

تصورا على قدر من الوضوح حول موقع المتنبي في رؤيا الجواهري ونصه على حد سواء ، وكيفية إفادة الجواهري من سلفه الكوفي الكبير في رفق تجربته الشعرية.

نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض ما عن لنا في هذ الموضوعة الإشكالية ، على مستويي الرؤيا / ماوراء الخطاب ، و النص / الخطاب بغية اجتلاء إحدى أهم مرجعيات الجواهري .

هوامش البحث

- (١) ينظر - تداول المعاني بين الشعراء - قراءة في النظرية النقدية عند العرب - أحمد سليم غانم - المركز الثقافي العربي - المغرب - ٢٠٠٦ : في مواضع كثيرة ، حضور النص الغائب (الفرزدق مرجعية للمتنبي) - بحث مخطوط مقدم للترقية العلمية - د. محمد الأسدي - كلية الآداب - جامعة البصرة - ٢٠١٠ ، نظرية النص " من بنية المعنى إلى سيميائية الدال " - د. حسين خمري - منشورات الاختلاف - الجزائر - ٢٠٠٧ : ٢٥٣ .
- (٢) ينظر - الجواهري دراسة ووثائق - د. محمد حسين الأعرجي - دار المدى - سوريا - ٢٠٠٢ : ٥١ ، الجواهري شاعر العربية - عبد الكريم الدجيلي - مطبعة الآداب - النجف الأشرف - ١٩٧٢ : ٢٩ - ٣٢ ، ديوان الجواهري - الأعمال الشعرية الكاملة - ط٢ - دار الحرية - بغداد - ٢٠٠١ : ٢٩ - ٤٤ .
- (٣) ينظر - الثابت والمتحول " بحث في الاتباع والإبداع عند العرب " - علي أحمد سعيد أدونيس - دار العودة - بيروت - ١٩٧٨ : ٢ / ١٦٧ .
- (٤) ، (٥) : ينظر - الشعر العربي وولاية العهد - د. محمد الأسدي - مقال منشور في موقع ديوان العرب - ٢٠٠٩ .
- (٦) مقالات في النقد الأدبي - ت. س. إليوت - ترجمة د. سهير القلماوي - مكتبة النهضة - مصر - ١٩٨٣ : ٣ - ١٢ .
- (٧) المكان نفسه .
- (٨) الديوان : ٢٢٤ .
- (٩) ينظر - نفسه : ١٥ ، ٢٩ .
- (١٠) ينظر - ديوان السيد حيدر الحلبي - تحقيق علي الخاقاني - مؤسسة الأعلمي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٤ : ١ / ١٥١ .

(٢٩٨)..... بحوث واعمال المؤتمر العلمي الاستذكاري لشاعر العرب الاكبر

- (١١) ينظر - الديوان : ٢٩ - ٣٠ .
- (١٢) الجواهري - الأعرجي : ٣٠٧ .
- (١٣) الديوان : ٣١٨ .
- (١٤) نفسه : ٣١٩ .
- (١٥) نفسه : ٣٤٧ - ٣٥٠ .
- (١٦) ينظر - الجمهرة " مختارات من الشعر العربي " - محمد مهدي الجواهري - دار الرافدين - ط ٢ - سوريا - ١٩٩٣ : ٣٤ / ١ - ٣٥ .
- (١٧) نفسه : ٣٢ - ٣٣ .
- (١٨) نفسه : ٣٥ .
- (١٩) نفسه : ٣٦ .
- (٢٠) الديوان : ١٩٥ .
- (٢١) نفسه : ٥٧ .
- (٢٢) ديوان المتنبي بشرح العكبري : ٤ / ١٦٠ .
- (٢٣) نفسه : ٣ / ١٤٧ .
- (٢٤) نفسه : ١ / ٢١٣ .
- (٢٥) نفسه : ٤ / ١١٢ .
- (٢٦) الديوان : ٥٧ .
- (٢٧) ديوان المتنبي : ٣ / ٢٩٠ .
- (٢٨) نفسه : ١ / ٤٩ .
- (٢٩) نفسه : ٣ / ٥ .
- (٣٠) الديوان : ٥٧ .
- (٣١) ديوان المتنبي : ٤ / ٣٤ .
- (٣٢) الديوان : ٥٧ .
- (٣٣) ديوان المتنبي : ٤ / ٤٣ .
- (٣٤) الديوان : ٦٤ .
- (٣٥) ديوان المتنبي : ٣ / ٣٧٨ .
- (٣٦) الديوان : ٢٧٣ .
- (٣٧) ديوان المتنبي : ٤ / ٢٣٦ .

- (٣٨) الديوان : ٣٦٩ .
- (٣٩) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٢٢ .
- (٤٠) الديوان : ٢٢٣ .
- (٤١) ديوان المتنبي : ٤ / ٩٤ .
- (٤٢) الديوان : ٢٨٤ .
- (٤٣) ديوان المتنبي : ٤ / ١٢٥ .
- (٤٤) نفسه : ٣ / ٢٨٧ .
- (٤٥) الديوان : ٦٤ .
- (٤٦) ديوان المتنبي : ٣ / ٣١ .
- (٤٧) نفسه : ٣ / ١١٦ .
- (٤٨) نفسه : ٣ / ٢٤٨ .
- (٤٩) الديوان : ٧٧ .
- (٥٠) ديوان المتنبي : ١ / ١٦١ .
- (٥١) نفسه : ١ / ١٧٨ .
- (٥٢) الديوان : ٨٦ .
- (٥٣) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٦٩ .
- (٥٤) الديوان : ١٠٢ .
- (٥٥) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٧٠ .
- (٥٦) نفسه : ٢ / ٢٣٥ .
- (٥٧) الديوان : ١١٥ .
- (٥٨) ديوان المتنبي : ٢ / ٣٣٣ .
- (٥٩) الديوان : ١٩٦ .
- (٦٠) ديوان المتنبي : ٣ / ٩ .
- (٦١) الديوان : ٢٢٩ .
- (٦٢) ديوان المتنبي : ١ / ٣٦٣ .
- (٦٣) الديوان : ٣٠٦ .
- (٦٤) ديوان المتنبي : ٢ / ٣٣٦ .
- (٦٥) الديوان : ٣٠٦ .

- (٦٦) نفسه : ٣٧٥ .
- (٦٧) ديوان المتنبي : ٤٠ / ٢ .
- (٦٨) الديوان : ٣٥٤ .
- (٦٩) ديوان المتنبي : ٢٦٣ / ١ .
- (٧٠) الديوان : ٣٥٤ .
- (٧١) ديوان المتنبي : ١٥ / ١ .
- (٧٢) الديوان : ٣٥٥ .
- (٧٣) ديوان المتنبي : ٩٤ / ١ .
- (٧٤) الديوان : ٣٥٥ .
- (٧٥) ديوان المتنبي : ١٠٩ / ٤ .
- (٧٦) نفسه : ٢٦٧ - ٢٦٨ / ٣ .
- (٧٧) نفسه : ٣٢٢ - ٣٢٣ / ١ .
- (٧٨) الديوان : ٣٧٦ .
- (٧٩) ديوان المتنبي : ١٠٩ / ٤ .
- (٨٠) الديوان : ٤٦٦ .
- (٨١) ديوان المتنبي : ١٢٠ / ١ .
- (٨٢) الديوان : ٦٣ .
- (٨٣) ديوان المتنبي : ٣٥٥ / ١ .
- (٨٤) الديوان : ٦٣ .
- (٨٥) ديوان المتنبي : ١١٢ / ٤ .
- (٨٦) الديوان : ٢٨٤ .
- (٨٧) نفسه : ٦٤ .
- (٨٨) ديوان المتنبي : ٢٤٢ / ٣ .
- (٨٩) الديوان : ٧١ .
- (٩٠) ديوان المتنبي : ٢٥٦ / ٤ .
- (٩١) الديوان : ٧٥ .
- (٩٢) ديوان المتنبي : ١٦٠ - ١٥٩ / ٤ .
- (٩٣) الديوان : ٧٥ .

- (٩٤) ديوان المتنبي : ٤ / ٢٤٣ .
(٩٥) الديوان : ٧٦ .
(٩٦) نفسه : ٧٧ .
(٩٧) ديوان المتنبي : ٤ / ١٢٤ .
(٩٨) نفسه : ٤ / ٢٠٩ .
(٩٩) الديوان : ٧٢ .
(١٠٠) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٣٦ .
(١٠١) الديوان : ٨٩ .
(١٠٢) ديوان المتنبي : .
(١٠٣) الديوان : ٩٣ .
(١٠٤) ديوان المتنبي : ٣ / ٢٣ .
(١٠٥) الديوان : ٩٣ .
(١٠٦) ديوان المتنبي : ٢ / ٤٣ .
(١٠٧) الديوان : ١٠٩ .
(١٠٨) ديوان المتنبي : ٣ / ٣٦٦ .
(١٠٩) الديوان : ١٢٦ .
(١١٠) ديوان المتنبي : ٢ / ٢٩٦ .
(١١١) الديوان : ٢٤١ .
(١١٢) ديوان المتنبي : ٣ / ٣٦٣ .

المصادر والمراجع

- ١- تداول المعاني بين الشعراء - قراءة في النظرية النقدية عند العرب - أحمد سليم غانم - المركز الثقافي العربي - المغرب - ٢٠٠٦ .
- ٢- الثابت والمتحول " بحث في الاتباع والإبداع عند العرب " - علي أحمد سعيد " أدونيس " - دار العودة - بيروت - ١٩٧٨
- ٣- الجمهرة " مختارات من الشعر العربي " - محمد مهدي الجواهري - دار الرافدين - ط ٢ - سوريا - ١٩٩٣ .
- ٤- الجواهري " دراسة ووثائق " - د. محمد حسين الأعرجي - دار المدى - سوريا : ٥١ .
- ٥- الجواهري شاعر العربية - عبد الكريم الدجيلي - مطبعة الآداب - النجف الأشرف - ١٩٧٢ .

(٣٠٢)..... بحوث واعمال المؤتمر العلمي الاستذكاري لشاعر العرب الاكبر

- ٦ - حضور النص الغائب (الفرزدق مرجعية للمتنبى) - بحث مخطوط مقدم للترقية العلمية - د. محمد الأسدي - كلية الآداب - جامعة البصرة - ٢٠١٠ .
- ٧ - ديوان الجواهري - الأعمال الشعرية الكاملة - ط٢ - دار الحرية - بغداد - ٢٠٠١ .
- ٨ - ديوان السيد حيدر الحلبي - تحقيق علي الخاقاني - مؤسسة الأعلمي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٤ .
- ٩ - ديوان المتنبى - شرح العكبري - لجنة من المصححين - دار الفكر - بيروت - ٢٠٠٣
- ١٠ - الشعر العربي وولاية العهد - د. محمد الأسدي - كلية الآداب - جامعة البصرة - مقال منشور في موقع ديوان العرب - ٢٠٠٩ .
- ١١ - مقالات في النقد الأدبي - ت. س. إليوت - ترجمة د. سهير القلماوي - مكتبة النهضة - مصر - ١٩٨٣ .
- ١٢ - نظرية النص " من بنية المعنى إلى سيميائية الدال " - د. حسين خمري - منشورات الاختلاف - الجزائر - ٢٠٠٧ .